صديق الكلاب

بقلم احمد حسن الزيات

شرب عبد الواحد [1] وسقانا ثلاثة أقداح من الشاى العطر . ثم أطلق من حنجرته القوية جشاءة طويلة عريضة كخوار العجل ، ثم حمحم النار بأنامله وشبع ضرمها فى بقية الفحم ، ثم أشعل منها (سيكارته) العربية وأرسل فى رفق دخانها الرقيق الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام . وكان كلبى الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب الوقد ، فهو ينطوى وينتشر تبعا لما يتلب على جو الغرفة من نفخ النسيم أو لفح اللهب . فرأيته يطيل النظر اليه فى طرف ساكن ووجه ساهم . فقلت له مداعبا : لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهي فى خبائها بين كلابها وشائها . فابتسم ابتسامة العذراء الخفرة وقال : الحمد لله ما ذكرت على قترى حياة البر [2] منذ هجرته ، ولكنى ذكرت رجلا كان فى بغداد يدعى (أبا الكلاب) . فسألته وما حديث أبى الكلاب هذا ياعبد الواحد ؟ فلمع فى عينيه البشر ، لان سروره كان فى أن يتحدث وتسمع . وذهب به شىء من التيه لأن شعوره بانه يعلم مما لا تعلم يرفعه قليلا فوق قدره ، فتلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ، ويلهج لهجة الامير ، ويقرر تقرير العالم .

قص على هذه الاقصوصة وهو منها على يقين جازم ، وما كان أسرنى وأسرك لو استطعت أن أنقلها اليك بلغته الجميلة التى تأخذ من لحن بغداد ومن لحن البادية . على أنى سأحاول ما امكننى القدرة أن أترجمها ترجمة صادقة تكشف عن أثرها فى نفسه وفعلها فى نفسى

* * *

كان فى بغداد منذ خمسين عاما أسرة كريمة تمتّ بنسب العرب من جهة الاب . وتتصل بسبب الترك من جهة الأم فهى مزاج معتدل من عقليتين متباينتين لا يجمع بينهما غير الدين . والدين فى مثل هذه الحال يكون أوثق عقداً وأمتن أسبابا لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية القومية ؛ فالوالدان صالحان تقيان لا ينتميان من العروبة الا النبوة والقرآن ، ولا من التركية الا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان عن بغداد وفروق الا أنهما بلدان فى وطن واحد ، والولدان جميلان بارّان يكبر الذكر منهما الانثى بخمس سنين ، وقد درجا معا من مهد الطفولة ، ثم ترعرعا فى حنان الابوين على كفاف من العيش يؤتيه متجر غير نافق .

لم يشغل عبد الواحد باله كثيرا بتفصيل حياة هذه الاسرة الصغيرة . فكان كلامه عنها مرسلا مجملا لا يحال طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ حادث ، ولا يعين مكان منزل ، حتى أسماء الاب والابن والبنت لم يجد فى ذكرها ما يفيد الحديث ! .

فهو يحذف ما يزعم فضولا ويسير قدما الى هيكل الموضوع وعقدة الحادث ، فيقول ان الغلام كان عمره اثنى عشر ربيعا حينما صحب خاله الى الاستانة . والاستانة يومئذ كانت متجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة الى السلطة أو الثروة أو العلم . فهل كانت هجرته الى دار الخلافة تنفيذا لنفسه ، أو تخفيفا عن أبيه ، أو مساعدة لخاله ، على تدبير متجره وماله ؟ كل ذلك يجهله راوى الحديث فما يعلم الا أنه شدا شيئا من العلم فى احدى مدارس القسطنطينية تحت عين وليه ورعايته ، ثم اندفع فى غمار المدينة الصاخبة يداور الامور ويتلمس المكاسب ، ثم أوغل فى مدن البلقان وشعاب الاناضول ، حينا فى خدمة الجيش ، وحينا فى طلب العيش حتى انقطع علم ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الاخطار فى كل فج ، ويصارع الاقدار فى كل لج ، وكل همه أن يجمع من المال ما يضمن له ولاسرته خفض العيش فى ظلال بغداد الجميلة . فلما ملأ الصريدين بما أمل كان وأسفاه ربيعه قد أدبر ، وريعه قد أقفر ، وحلمه قد تبدد !! فان والديه البائسين قد ألم عليهما من بعده الحزن والفقر والفقر حتى انطفأ سراجهما فى حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره بضع سنين . وأما البنية اليتيمة فقد حنا عليهما بعض ذوى المروءات من أهل البيوتات فضمها الى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه .

عاد المهاجر الى وطنه يحمل فى جيبه المال وفى قلبه الآمال فاوطأت قدماه ثرى العراق الذهبى حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره ، ولكن شعوره بلذة العودة الى الارض التى أبصر عليها الدنيا ، والسماء التى تقبل منها الروح ، والهواء الذى رف عليه بالصبى ، والماء الذى نضح قلبه بالنعيم ، والاسرة الحنون التى يراه اليها الشوق . والمستقبل الباسم الذى ينتظره فى بغداد . قد شعب فؤاده وشفى كمده ومسح مابه .

عرف المحلة والدار بعد لأى لطموس المعالم القديمة . ثم قرع الباب جيد مرتجفة فاذا المالك الجديد يخرج اليه ! فاقبل عليه المسكين لهفان ضارعا يسأله : هنا كان مهبط نفسى فاين أبى ؟ وهنا كان مستقط رأسى فاين أمى ؟ وهنا كان لى مهد وأخت وملعب وجيرة ، فقل لى بربك ياسيدى اين تحمل بكل هؤلاء القدر ؟ وكان بين المسئول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ريح المنون قد عصفت بأهله . فارتد الى الفندق لا يملك دمعه ولا قلبه ، ثم قضى حينا من الدهر ذاهب اللب يكابد غصص الكرب ويعالج مضض الهموم حتى رأم الزمان والايمان جروح صدره .

* * *

(١) عبد الواحد رجل بدوى كان يقوم على خدمتى وانا ببغداد

(٢) يريد الصحراء

« بقية المنشور على صفحة ٢١ »

ويعتقد في خلود أقواله هو [1] . أيها الشعر انه يسخر من رموزك الموقره وأنت للمفكرين الحقيقيين موضع الحب الذي لايفنى .

—١٠—

كيف تضاع الافكار العميقة ما لم تجمع نيرانها في ماسك الذهبية التي تحفظ سناها المتركز تلك المرآة الصافية الوهاجة المليئة — بقايا ماييد من دول — ذلك الحجر الخالد الذي تعثر به اقدامنا عندما نبحث عن أنقاض المدن الفانية ولا نجد لها من أثر .

—١١—

أيتها الملاسة الفريدة ليضيء شعاعك للعقل الانساني مواضع خطواته البطيئة المتخلفة . ليضحك الراعي على قمة منزله لكي نستطيع ان نرقب عن بعد الشعوب تطوي سبيلها . لما يصح النهار وما زال عند أوائل أشعته الفضية التي تسبق بزوغ الفجر وتميز أفق السماء من مستوى الارض .

—١٢—

ما تكاد الشعوب تفطن لنفسها وسط حشائش العوسج التي نبتت حولها وهي غارقة في سباتها . ها قد أخذت أيديهم المتضافرة تشق سوقها لصنع الجهاز الأول [2] . ما تزال البربرية تمسك أقدامنا في غمدها . وما يزال رخام الازمنة الساحقة يفلنا الى ما فوق خواصرنا . ما أشبه كل رجل نشيط بالاله « ترميس [3] » .

—١٣—

على أن روحنا الوثابة تنهض بالنشاط، فتنشق الحجب عن مكنون قواها والمكنون موجود وان توارى عن النظر . للنفوس عالم تجمعت به كنوزها وان لم نستطع لها لمسا . بين احضان الله تضام الوجود وفي منطقه تركزت حكمة البشر كما تركزت أجسامنا في فضاء الأرض .

محمد عبد الحميد منصور
ليسانسيه في الآداب

---

(١) قصد بذلك لامرتين .

(٢) ماذا يريد أن يقول الشاعر وما معنى الجهاز الاول أمر تحيرت فيه ألباب الشارحين وأنا هنا أعرض رأيي كما أبديته لاحد الاساتذه وسربه ويتخلص في أن الشاعر يشبه نشوءها عند ما يحدث أحد طرفيه الانسان وهو غارق في الجهل الذي طغى عليه وهو ناء والطرف الآخر جاءه من الناس تعلموا وفي أثناء تعلمهم نما حولهم العوسج حتى غطاهم فلما استيقظوا أخذوا من فورهم في أعمال الفأس أي الجهاز الاول لحصد تلك الحشائش فالجهاز من جهة الجريد هو عقل الانسان الذي يصله في الجهل ليحصده ومن جهة التجويف هو الفأس التي تحصد الحشائش .

(٣) في هذه الفقرة نظر فدرة الشاعر على استدعاء المعاني والصور فمكانها مستوحاة من تمثال الاله « ترميس » له اعتقاد عند الرومان فقد بلغ من احترام حق الملكية عند الرومان ان كانوا يحدون أملاكهم بتمثال الحق يكون نصيب من يتعدى عليه الشفاء الابدي وكانوا يمثلون هذا الاله نصفه الاعلى صورة رجل ونصفه الاسفل قاعدة من الرخام . فتصور الشاعر ان الاله رجلا حسنا نصفه الاسفل في رخام ومن ذلك اشتق معانيه فنحن عارفون في الجهل الى ما فوق خواصره كالاله « ترميس » وكل رجل نشيط يشبه الاله « ترميس » في أن نصفه الاسفل مسجون في بحار الجهل كما أن نصف ذلك الاله مسجون في الرخام والجهل يمسك أقدامنا في نجده كما يمسك الرخام ذلك الاله .

(١) في الاساطير اليونانية ان اوديب الملك قضى عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه فلما تحقد القضاء على غير علمه نقأ عينيه وخرج من طيبة هائما يقوده ابنته انتيجون

« البقية على ص ٣٢ »

وقع في نفس الوحيد الحزين ان يتزوج ليعيد الى مسجل الوجود أسم أسرته فاقترحت عليه جارة له يجوز أن تخطب اليه فتاة يقولون ان بينها وبين بني فلان عاطفة رحم . ويؤكدون أنها تنزع الى عرق كريم لطبعها المهذب وجمالها المحتشم فاطمأن قلب الخطيب الى رأي الخاطبة واختلفت المجوز بينه وبين ولي الفتاة حتى تم الوفاق وسمى الصداق وعينت ليلة الزفاف .

زفت العروس الى زوجها فبهره ما رأى من جمال واحس من ظرف وسمع من أدب ، فاقر في وجهه السرور وحمد الله على حسن توفيقه ، ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه . وفي ذات ليلة تجاذب العروسان اطراف السمر وشقفا بهما الحديث حتى افضى الى علاقتها بوليها فلان (بك) فاحب الزوج ان يعرف درجة القرابة بينهما ، فغضت الفتاة من طرفها ، وشاعت حمرة الخجل في وجهها ، وقالت في صوت خافت متهافت من الحزى والخوف: الحقيقة ان ليس بيني وبين هذا الرجل قرابة ! ! وانما هو نبيل محسن آواني وربائي بعدما فجعني البين في أحي ، والموت في أبي ، وأنا يومئذ في حدود الثانية عشرة . ثم تتابعت الاسئلة من الزوج ، وتسارعت الاجوبة من الزوجة ، وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه واقشعر بدنه ، واشتد وجيب قلبه ، وكانت هي كلما رأت منه ذلك نسيته الى اعتداده في أصلها فغضت تفصل المأساة وتصور العاجمة بالكلام والدمع ، عسى أن تعطف قلبه على مصابها ، فلا يفكر في طلاقها وعذابها ، ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الاخير حتى رأت زوجها قد قشعر شعره واشتنج سحره وارتعدت أطرافه ، ثم انفجر صارخا يقول : واويلتاه ! واامصيبتاه ! لقد تزوجت أختي ! .... ثم خر مغشيا عليه . فلما ثاب اليه بعض رشده نظر الى أخته فوجدها فاقدة الوعي فتركها وابتدر الباب وخرج مسرعا لايلوي على شيء ولا يلتفت الى أحد ! .

. . .

خرج طريد القدر من بيته خروج (أوديب الملك [1]) من قصره يهيم في الطرق الغريبة المتشابكة يسأل الرائح والغادي عن مفتي بغداد ، فلما أدخل عليه باح له بسر الخطيئة فهول عليه الترك بعقابها ، فالغ في جزائها وأعقابها . ثم أفاء بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا بأن الله لايكفر هذا الجرم الا اذا صدف عن متاع الحياة وخرج عن أثيل الملك ، واستتر بأخلاق الثياب ، وقضى بقية عمره في جمع الخبز للكلاب شوارد !

اذعن الخاطىء البريء لحكم الفقيه الاحمق ونزل للزوجة الاثمة عما يملك ، وارتدى طمرا من غليظ الكرباس وجعل على عاتقه مخلاة

---

(١) في الاساطير اليونانية ان اوديب الملك قضى عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه فلما تحقد القضاء على غير علمه نقأ عينيه وخرج من طيبة هائما يقوده ابنته انتيجون

« البقية على ص ٣٢ »